قسطاكي الحمصي الحلبي

في رمز التاريخ

١٨٥٨—١٩٤١

عادل النضان

في مستهل شهر مارس المنصرم روعت حلب بل روع العالم العربي بأفول نجم من نجومه المنيرة هو المرحوم قسطاكي الحمصي بلك نقيا منه آخر كوكب — على ما نعتقد — من تلك الثريا المتألقة التي ظلت مدة نصف قرن ترسل من عليائها أنوار البيان العربي الصحيح

لئن اكبر العالم العربي فجيعته بالحمصي وفقد به مأثراً ساحراً وشاعراً عظيماً لقد فقدت حلب به ابناً من أبنائها البررة كان في العصر الحديث درة تاجها وعنوان فخارها وليست حلب بالمجهولة المكان في سماء الادب فقد أنجبت كل عظيم وما فتئت معقل العرب ومستلهم قرائحهم بآثارها الخالدة ومكتباتها العامرة وبياتينها النضرة وتاريخها الجليل فان مدينة تكون عربتها سيف الدولة وملتقى الروائع الأعلام من مثل ابي فراس والمتنبي وابن خالويه وكشاجم الرملي وأبي علي الفارسي والمعري والبحتري والخالدي الى المراش والدلال وحسون والكواكبي والنزي والحمصي انها لحرية أن تباهي البلدان تيهاً وخيلاء وهي التي كان لها في النهضة الحديثة القدح المعلى فأول مطبعة عربية ظهرت في الشرق العربي كانت المطبعة الحلبية ثم نقلت الى لبنان وانتقل معها كوكبة من الحلبيين الأفذاذ ممن أخذت النهضة العربية بشغاف ليهم فبرزوا وقد توفر لهم الملجأ الأمين الى نشر مطاوي محاسنها واذاعة دفائن أسرارها وانتزاع الحرائد والفرائد من مغاوص دررها بمؤلفات لا تزال الى اليوم ناطقة بفضلهم شاهدة بمجدهم منوهة بجدهم الخالد في حين كانت البلاد العربية الأخرى تغط في سبات عميق

لما شب الحمصي عن الطوق كانت حلب ولاية تركية غير ان الأثر التركي فيها وان شمل الجانب الرسمي منها وتجاوزه أحياناً الى بعض مرافق الحياة ما كان ليتوغل في صميم حياة أهليها وسجاياهم وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيما في أدبهم وثقافتهم ولهوهم وطربهم وسياستهم واجتماعهم . وكابروا الى براعتهم في الشؤون المالية بسبب موقع حلب الجغرافي متأثرين بعوامل من الأدب العربي هي ثمرة ما غرسته في نفوسهم النهضة الحديثة من أصول الفنون والآداب وما هو أن يبلغ الحمصي أشده حتى يعمد الى الاستقلال بادارة مصرف مالي كبير آل اليه من ابيه ولكنه مع ذلك لم يثن عن تحصيل العلم والاستبحار في الأدب متأثراً بذلك الجو الأدبي الذي ألمنا اليه

بعد مدينة افاميا بنحو من خمس مسيرة ٩٠ دقيقة تتطلق بك السيارة في ارض معبدة قامت على جانبها الآثار البديعة حتى اذا وصلت السيارة الى المدينة وقفت سيرها صعداً الى رابية من روابيها تسمى «الحريات» رأى الزائر فيها قصعة من جبال الجليد قد نبت بها يد التنسيق والتجميل فالصخور في أعلى الرابية تحجرت عن عيون من الماء انزلان قد سار في قوة الدفاع بين الأكم والتلعات الى رواق واسع منجرف الحافة ثم انحدر منهُ الى الوادي شلالات متفرقة بتطاير رشاشها وتلمع اضواؤها ويمسك ذوب الثلج فيها من علو شاهق على روضة أنف باسقة الاشجار مخضلة الغصون وارفة الظلال ثم يتفرع كل شلال جداول وسواقي تنساب السياب الرقشاء في ارض منبسطة حيناً وذات تعاريج ومنعطفات اخرى حافلة على زرد ضفتاها واضاعيف أمواهها الري والحياة الى خمائل الزهر ولفيف الشجر وظواهره السهل

وما أشبه الحمصي بهذه الجنة الغناء صورة وأثراً فنفسه كانت تفيض بمذهب اليأس على هواها لا سلطان عليها في ذلك الأ التفاعل الذي يجري في جوانحه والتأثر الذي يحرك جوانب صدره فتنبثق منهُ عيون الشعر والشعر بقدرة الملكة التي حباه بها الله كما انبثقت تلك العيون الزلال بقدرة الله الذي حباها المتنفس . وما أشبه شتى الموضوعات التي نظم ردنها او نزلاتها بتلك الشلالات المتفرقة المنبعثة الى الوادي تحمل اليه نسمات الحياة والخير العميم . فالشلال الاول فهو للدين

عرف الحمصي بأنهُ متدين مؤمن ولكنهُ لم يكن يفهم من الدين أنهُ أداة تعصب ذميم بل كان يفهم فيه العلاقة التي تربط المخلوق بالخالق والوازع الذي يني النفس عن نزعات الهوى والسبيل الى الاعتراف بوجود الله وخلود النفس وان تعددت النصوص بتعدد الديانات وكان رأيه في هذه الأديان كرأي جميع العقلاء في أن لب الأديان الصحيحة انما هي جداول مختلفة تلتقي عند مصب واحد هو الله خالق الأكوان والى هذا يشير بقوله :

كل يدعي استواء مذهبه والعقل يقضي بأوضح الطرق
الدين لله والبلاد لمن توطنوها من سائر الفرق

وللحمصي في هذا المضمار منظومة طويلة تربي على ١٥٠٠ بيت نظم فيها طرفاً من كتاب الاقتداء بالمسيح ونحواً من روائع مزامير النبي داود وحاك بردتها في أخريات أيامه تربى الى الله وزاق ورجاه أن يترك للشبيبة تراثاً روحيًّا تستوعب معانيه القدسية في هذا العصر الأنكر. واليك مستهل المزمور الخمسين منها وكلها على هذا النمط من السهولة والسلاسة قال .

رحماك ربي لا اله سواكا أنا عائذ بك لائذ بفناكا
فاغفر برحمتك العظيمة كل ما اذنبته وتولني برضاكا
واقبل بواقتك الخريبة توبتي واغفر معاصي سائل غفراكا

قام الى جوار شلال الدين شلال ثان ما أحراه أن يكون تابعاً لهُ متحدراً منهُ ألا وهو شلال الأخلاق. نظر الحمصي الى الأخلاق نظرة الرجل الحكيم المهذب النفس الصافي السريرة

فأحب أن يتحلى بنو وطنه بمكارم الأخلاق فما أضاع الأمم شيء مثل ذهاب الاخلاق وتسفلها ثم نظر الى الاخلاق من ناحية أخرى بعين الفيلسوف الاديب وقدر اثرها في رقي الدول وارهاف الاحساس وسمو العاطفة فراح يشيد بها ويدعو لها دعوة المؤمن بشأنها الغيور على مقامها الاعلى وخير ما طالعناه له في النثر في هذا الباب كتابه « مرآة النفوس » وقد استهله بفصلين عقدهما في تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة وتأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق وكلاهما بحث ممتع فياض الدين فيها للاخلاق من أثر في نفوس الافراد والأمم

اما تغنيه بالأخلاق شعراً فقد أجزل فيه القول في غير موضع فتارة ينفح في رباب الناصح الشفيق وطوراً يقرع العصا لذي الحلم وحيناً يصف مكنونات الصدور وما تحويه من زيف وزيغ وما انطوت الجوانح عليه من حسد ولؤم الى كثير من مثل هذه المواقف الشريفة التي دوّى فيها صوته بلسان الأخلاق . وللحمصي في الاخلاق قصائد ومقطوعات كثيرة منها مجموعة من المقطوعات سماها « مرآة الأخلاق » ومنها موشحات هي غاية الغايات في هذا الباب

لا بد لمن يدعو الى الدين ومكارم الأخلاق أن يكون من أكبر دعاة الوطنية وهذا هو الشلال الثالث الذي فاضت به جوانب نفسه عن آي الشعر وأخذ السحر

كان الحمصي عين أعيان حلب من المسيحيين وكان منزله منتدى العظماء والكبراء من الاتراك والفرنسيين فما بعد غير أن صلته بهم ونفوذه لديهم وما كانوا يحيطونه به من رعاية واحترام لم يثنه يوماً عن الجهر بعقيدته الوطنية وعصبيته العربية . أما مبدؤه السياسي فوحدة سورية واستقلالها التام في ظلال الراية العربية مع ما يؤلفها من مختلف أديان وأجناس ومن العدل هنا أن نشير الى أن مسلمي حلب ونصاراها قد ضربوا أروع مثل للتآخي والوداد وفي ذلك يقول إبان ذبح الأرمن في أنطاكية وما جاورها ووقوع الخوف والهلع عند نصارى حلب وما كان من ذمام مجاوريهم العرب بمكان حلب سنة ١٩٠٩

كل حمد لنا صنعتم قليل وابر الشكر قاصر والطويل
قد حقنتم دماء قوم لهم في دمة المسلمين عهد جليل
شهد الله انهم أقرب النا س اليكم مودة ورسول
هذه سنة الاكارم طراً هكذا يحرس الخليل الخليل

ولما كان عضواً في مجلس الشورى بدمشق عمد بعض الساسة الى المناداة باستقلال حلب عن دمشق فاستقال من المجلس وقال قصيدته « الحلبية » المشهورة

انا اقربك بعد الهجر ميعاد فكم ارى في وحشة والصحب ارصاد
حاشا لقومي ان يرضوا بفرقة وبينهم رب غيور ونقاد
اني اضن بقومي كيفما قسموا من ان يفرقهم غل وأحقاد

وكم ثارت نفسه النبيلة عند ما كان يرى زمام الأمر في يد غير أهله وعند ما كان يرى الجهال والأدعياء متربعين في دست المناصب والنيابة فاسمعه يقول في مجلس المبعوثين التركي :

[illegible]

ولا بدعا ونحن في ميدان الكلام عن الوطنية الا ان امرض ولو لماماً لآراء الحمصي في السياسة العالمية وما اتصل بها من شؤون هزت مشاعره وانطقت لسانه فكاد لاتفتق زهر الحرب العظمى حتى ينظم قصيدته الكبرى « داهية البواخر » وعند ما يدور الفضاء دورته وتتمكن جيوش الحلفاء من فتح بيت المقدس يسجل لها ذلك الفتح بقصيدة عصماء يقول فيها :

رتي الحد يا معابد اورث ... لهم للقائمين جداً مضوّع
صدق اليوم قول كل نبي ... نظم الشعر لي حماك وسجع
ملك يأتي يخلص الناس طراً ... من عداه عم الشعوب وروع
ويرى الخلق فوق طيرك نوراً ... ظلة الشرق تنحني حين يصطع

سافر الحمصي غير مرة الى فرنسا واختلط برجالاتها كما اختلط بمدنيّ رجال الانتداب وشاهد مجالي ثقافتها وحضارتها ومظاهر لهوها وطربها وأقانين طوبها وآدابها واستمع خطباءها وندماءها فنراه قد خص فرنسا بكثير من قصائد ضمنها ذكرياته وأودعها ما وقعت عليه عينه من آيانها وروائعها غير ان حبه وطنه وأمته الكبرى في ان يرى سورية مستقلة حرة لم يمنعه في مستهل هذه الحرب الجديدة من أن يدعو لفرنسا بالنصر والتأييد في مقالة منثورة هي قطعة من الادب الرفيع ولما منيت فرنسا بكارثتها الكبرى نظم فيها قصيدته « أصدق الخبر في عبرة العبر » رثى فيها لفرنسا وحمل حملة شعواء على الاشتراكية والشيوعية قال في مطلعها :

أكذا تكدّر مصارع الآساد ... أكذا تخر صماك الاطواد
ايه فرنسا ما اصابك بغتة ... حتى غدوت صريعة الصياد
لو ان برج النسر زلزل بلأة ... ما كنت اعظم منك في الاعضاد

لا مشاحة في ان من يتعصب لوطنه يتعصب للغته وهذا هو الشلال الرابع الذي سال من نبع قريحة الحمصي وانسكب على رياض العالم العربي فأروى وأمرع

أما النثر فتأنق فيه دون ما تكلف ولا تصنع تأنقه في ملبسه ومأكله واختيار تحفه ورياشه بل تأنقه في خطه القارسي الجميل وله فيه طريقتان لا تقل كلتاهما عن طريقة أكتب كتّاب العربية القدامى والمحدثين فان عمد الى الادب والوصف حتى في رسائله الى اخوانه طرز كتابته بالسجع وان عنّ بنسج بردة بحث لغوي او تاريخي او علمي استخدم النثر المرسل وهو في هذا وذاك يتوفر بالوضوح واشراق الديباجة وشرف اللفظ ومتانة الحبك وجمال الأسلوب قد أخذت منه خلة الاستقراء والاستقصاء ودقة البحث والتحقيق مأخذاً عز له فيه النظير

على ان نحفة نجد في رأينا هو كتاب « منهل الوراد في علم الانتقاد » فقد نحا في هذا المؤلف الفريد في بابه منحىً جديداً في أصول النقد وترتيب أبوابه وتقسيم فصوله ثم موازنته

بين الأسوة الالهية لداني ورسالة الغفران لأبي العلاء وهي بحث طريف ذهب فيه الى أن الأسوة الالهية انما هي صورة من رسالة الغفران فهل أن يكون دانتي قد قصد مدرسية قرطبة وتعلم اللغة العربية فيها واطلع على هذه الرسالة وإما أن يكون قد وقف على ترجمة لها ولا سيما ان أمراء الاندلس كثيراً ما كانوا يبحثون عن المؤلفات الجديدة كما كان علماء اليهود من العرب في الأندلس يترجمون المؤلفات العربية الى اللاتينية أو إلى العبرانية ومنها الى اللاتينية

ومن أمثال غيرته على اللغة العربية قصيدته البديعة ذلك انهُ قام في صيف سنة ١٩٢٠ نفر من الشعوبيين في بيروت ولبنان يدعون الناس الى المطالب من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في محاكمها ودوائرها فألهم هذا الحدث الحمصي موضوع تلك القصيدة التي يقول في مطلعها :

يا لله يا نسمات الرند والبان ... من نجد جئت أم من روض غسان
فان تكن ريحاً من ملاعبها ... فطيب ليل بأنفاس وأردان
ما ضرها انها والحسن عابدها ... لها حواسد من أهل وجيران

ولئن بدا الحمصي محافظاً أشد المحافظة على اللغة والأسلوب انهُ لم يكن من المتمنتين الواقفين من جدة العصر ومستحدثاته موقف الجمود فانك ترى في نثره وشعره مع تلك المحافظة على اللغة والأسلوب أغراضاً عصرية شائقة بين معرَّب وموضوع جلاها في مقالات وقصائد وموشحات مثالاً رائعاً للقصص الشعري والوصف الحصري وفي موشحاته التي تناول فيها وصف الشؤون الطبيعية يقول أمام اللغة الشيخ ابراهيم اليازجي أنهُ لم تجر عليها قافية عربية من قبل وهذه شهادة لها قيمتها عند العارفين وان شئت أن تسمع تنديده بالجامدين والمقلدين فاقرأ موشحه «ميلاد الربيع» الذي يقول في مستهله:

انت من يامن على تلك الدمن ... يذرف الدمع ويستبكي الطلول
كم تناديها ولو أصغت لنا ... جاءها مستنطقاً كانت تقول
عد عن جهلك ياهذا الغبي
كم سمعنا او قرينا او جرير ... أو زهيراً أو اياساً أو هلال
او أبا النشاش والجم الغفير ... من ملوك الشعر أرباب الفعال
كلكم يفعل أفعال صبي
تندبون الربع أو بيت الشعر ... أو خيالاً زار ليلا ورحل
او حصاناً أو بعيراً قد نفر ... تضعون الدر في عنق الجمل
وخبيس الترب فوق الذهب
منذ الفي سنة بل ضعفوا ... دأبكم ترديد هذا النغم
تلك حال حسبنا في وصفها ... حال قوم سلكوا في الظلم
وأضاعوا وقتهم في الطلب
ذاك أو يقرب منه ما رواه ... عنكم التاريخ في فن القريض
بد عن كل شرط في مداه ... ولكم في نظمه جاد عريض
من أسيب أو مديح تكسب
وعن النقيب أعرضتم سوى ... ما أتى من مثل أو قافيه
وعظيم ان كبرو مع ما فيه روى ... من أعاجيب شؤون خافيه
لم يكن فيه لكم من سبب

فكأن النسيب والفخر الذي ... ودعوه بعدها أمس الظلم
والسحر لم يقتفي هذا الفتى ... بيني الاقريح أرباب العلوم
واسمعوا ما قاله في حلب

كان انشلال من تلك الشلالات كان يتمرع جداول وسواقي كذلك كان شلال الشباب عند الحمصي متفرعاً الى كثير من الجداول والسواقي فمن مطارحات ومداعبات إلى إخوانيات وخصوصيات إلى نسيب ومدح ورثاء رسم في ذلك كله صورة صادقة لحياته في جدها ولهوها ولخلجات نفسه في سرورها وحزنها ومجتزىء عن هذا الفيض ببعض الوصل توفية هذا الإطار الذي أرتضينا ان نحف به صورة حياته

فمن مداعباته ما كتبهُ الى صديقه شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عند زيارته القاهرة سنة ١٩٠٢ ورؤية الخلان والاصحاب قد أتتهم عقدهم وتفرّق شملهم قال :

أصحابنا في مصر قد سبعوا ... أصحابهم واستعصبوا الذكرى
غابت عنهم واحداً واحداً ... فكأنهم أمسوا البشرى
كأنهم قد حصروا السعي في ... جمع الثراء الغاية الكبرى
ونسوا ان تتقي بعدها ... للناس في المرجودة الاخرى

ومن هذا الباب ما قاله ايضاً وقد رأى الفراش في غرفة مكتبه يناوش في نقش السقف ويزويه

هب ان هذا السقف من زبرجد ... وان هذي الارض من فضة
أليس ذا عاقبة كلها ... والمنزل الآخر في حفرة

وأروع ما قرأناه له في الرثاء رثاؤه الشيخ ابرهيم اليازجي والملك فيصل وسعيد باشا شفير واسعد خليل دانغر . على أن أرق مراثيه قصيدته في حميد له وقد كان له في قلبه منزلة لا تدانى لما كان عليه من حب العلم وما كان متحلياً به من آي الذكاء قال :

كيف أصبت ياجبيب بعدي ... أسيراً حللت أم عرش مجد
كنت للعين قرة وسروراً ... للفؤادي ونجم أنسي وسعدي
ليتني مت قبل يومك بل يا ... ليتني لم تكن مناك بلحد

ولعل هذه العاطفة الصادرة عن مثل هذا القلب الجريح هو أن الحمصي كان جم الشغف بأحفاده وحفيداته شغفه ببناته الخمس وكلهن وكلهن في المقام الأول من أدب النفس وأدب الدرس وفي بناته يقول :

ان يكن يوم عمري التيه ... بناتي
ذقت من لذات دهري ... كل أنواع الطيبات
كنت فوق الارض روحاً ... ساكناً هيكل ذاتي
فتضاعفت فروحي ... هي في نفس بناتي
فحياتي في بناتي ... ان يكن يوم عماتي

هذه لمحة عن حياة هذا الناثر الشاعر وعن سحر فنونه بعد أن جمع في تلك الفنون من حكمة المعري وروعيات المتنبي وسلاسة البحتري ووصف ابن الرومي وما أجدر كل فن من فنونه أن يكون موضوع دراسة برأسها